



نظرات في كتاب

« بعث الشعر الجاهلي »

تأليف الدكتور مهدي البصير

للأديب خليل أحمد جلولو



الكتاب - كما يحدثنا المؤلف - غنة فصول من كتابه « الأدب العربي قبل الإسلام » الذي نقله إلى الفرنسية وعرضه بشكل أطروحة في السوربون. فأخفق لأن المستشرقين لا يرحبون بكتاب يشيد بالأدب العربي ويحسي ما اندثر منه، فاضطر إلى تأليف كتاب في الأدب الفرنسي البحث فاطمأنوا إليه وأجازوه الدكتوراه، والكتاب - بتعريف آخر - هو مجموع المحاضرات التي ألقاها صاحبه على طلاب دار المعلمين العالية ببغداد والكتاب إذا أردت أن يظن إليه أهل العراق، قلت هو كل ما ألقاه الدكتور من أحاديث في دار الإذاعة اللاسلكية في الصيف النصرم

ولا نحسبني أيها القارئ الكريم من الكاذبين إذا تفقدته في الأسواق فلم يجده، فإن وزارة المعارف قد اشترته وصر في المطبعة. بمن يدل على عطف وتشجيع، فأنقذت صاحبه من عناء التصريف وحسرة البوار، وأخذت بما يروي: « إرحموا من في الأرض برحمتك من في السماء » وهل أحد من الناس أولى من الأديب بالرحمة والإنعام في هذا الزمان !

إن الدكتور كان بخيلاً على أصحاب المكتبات أن يرتزقوا منه، وكان ضيقاً على القراء أن ينتفعوا به. فهل أمن النقد حين استخفى كتابه عن السوق؟ وهل اطمأنت نفس حين فرضه على طلابه في دار المعلمين السالية فرضاً ألا تذيب نواقصه وتنشر

عيوبه؟ وهل نجحت حيلته حين أذاعه في المذياع العراقي أرتجالاً ولم يسمح للسحف والمجلات أن تنشره؟

لقد خابت ظنون الدكتور، ولم يفت النقاد المترصدون أن يصمدوا له ويتناوشوه. فاليوم عليه « البعث » وعلينا « الحساب » ولا تكن عند حسن ظن الدكتور ا فلتست أبنى التعريض بشخصه ولا المس بذاته وهر من ذوى الماضي الجيد، ومن دعا الحركة الوطنية، ومن صاول وقارع البغاة المستعمرين، ومن لهم كرمي رفيع في دار المعلمين العالية

اقتضى هذا الإطار ما أعرفه عن الدكتور من ضيق الصدر بالنقد واحتباس نفسه منه سواء أ كان موجهاً إليه أم إلى غيره. واقتضاه أيضاً سوء الظن بالنقاد والارتياح بما يؤاخذون به الخطئين. ألم تلاحظوا الدكتور زكي مبارك لا يفتأ يطن صداقته وجبه لأحمد أمين في رده عليه، وبعض الناس لا يفتأون يتهمونهم بالأجراض والمقاصد، بل وأشركوا معه صاحب الرسالة؟

فليعلم الدكتور - غير معلم - أنني لا أضمر له كرهاً وليس لي معه مآرب، وأن الأدباء من حسناتهم النقد الزهيه، ولعل ربك يريد أن يسبغ على بعض حسناته حين قبض لي نقد كتاب « بعث الشعر الجاهلي »

أما بعد فإن كتابك يا سيدي ناقص من عدد وجوه لزم علينا تبيانها واستقصاؤها

أولاً: إنك اقتصرت في بحثك على خمسة شعراء هم امرؤ القيس، وزهير، وعمرو بن كلثوم، والحارث، وعنترة، وتركت الآخرين مقبورين لم تبصهم. فهل أنكرتهم وشككت في تراهم؟ وإذا كان ذلك فأين الدليل والبرهان؟ وإذا لم يكونوا من سلب بحثك فلم سميت الكتاب « بعث الشعر الجاهلي » الذي يقتضى ألا تدع ارتياباً في شاعر جاهلي ولا شكاً فيما روى عنه من قريض. هل تتخذ أن ما أغفلته حقيقة مسلم بها لا محتاج إلى التنويه والإشارة على الأقل؟

الملققة واختلافهم في الأبيات الأولى : أقائلها عمرو بن كلثوم ، أم قالها عمرو بن عدى بن أخت جذيمة الأبرش . وأنت مضطر أيضاً ، إذا أردت أن تفهم أشد الناس سذاجة ، أن تعمل ما في قصيدته من تكرار في الأبيات والحروف ، وشذوذ عن سلامة الطبع البدوي

وجدير بك وأنت تبحث في قصيدة الحارث التي آمنت بصحتها أن تقع القارىء بأنها ارتجلت ارتجالاً ، ولم يفكر فيها الشاعر تفكيراً طويلاً ويرتب أجزاءها ترتيباً دقيقاً .

تراني أيها القارىء الكريم أطيل عليك فيما يجب أن يتناوله الدكتور مهدي البصير في بحثه عن الشاعرين : عمرو والحارث ومعلقتهما . ولكن الحق مني فإن كتابه يدعى (بث الشعر الجاهلي) لا « بحث في الشعر الجاهلي » ، وإن الكتاب أتى على طلاب دار المعلمين العالية ولم يلق على طلاب المتوسطات . ولإني منتقد يجدر به أن يدل إلى الدكتور بما لاحظته من نقص وإغفال ويرشده إلى طريقة البحث العلمي الصحيح لعله ينتصح ويتلافى هذه الأغلط

ولندع ابن كلثوم والحارث ولننتقل إلى زهير وامرئ القيس أما زهير بن أبي سلمى فإن الدكتور لا يجد صعوبة ولا مشقة في إقرار شخصيته التي تتناقضها المصادر العربية القديمة وأشعاره التي تروىها ، فيحدثنا في مستهل حديثه عن زهير : « إننا لسنا بحاجة إلى إقامة الأدلة التاريخية على أن زهير بن أبي سلمى قد وجد حقيقة وقرض الشعر » (ص ٣١) ثم يقتصر « على درس معلقة زهير » ويقصد بالدرس هنا تفسير التريب من ألفاظ الملققة وشرح بعض المعاني فقط . ولا أظنك ترميني بالنلو إذا قلت إن الذي يريد أن يبعث الشعر الجاهلي ملزم في كلامه عن زهير أن يبعث عن نسبه إلى صريفة ، وإقامته في غطفان ، وكونه من أسرة معروفة بقرض الشعر ؛ وحظوته عند هرم ، ورأى النقاد الحديثين والرواة الأقدمين فيه ، وعلاقته بالإسلام مع ذكر الأدلة والشواهد التي تقع القارىء بصحة ما ينزل . وهل يُثبت ما ذكره في مستهل حديثه أن قصيدة الشاعر جاهلية وأنها لزهير وأن ليس للمتتبعين يد فيها ؟ وهل يصح له أن يفعل ما يتحدث به الرواة عن زهير : أنه تنبأ بالإسلام قبل البعثة ، وأنه أوصى ابنه كعباً وبجيراً أن يسلموا ، وأن له شعراً فيه أصول دينية إسلامية ، وأن النبي رآه فاستماذ بالله من شيطانه فانقطع زهير عن الشعر حتى مات ؟ [البقية في ذيل الصفحة التالية]

إن الذي يطعم أن يبعث الشعر الجاهلي يجب ألا يدع شاردة ولا واردة منه إلا استفصاها وامتنحها ، وإن من النقص الفظيع أن تكتفي في بحثك بخمسة شعراء . وهل تناولت غير شرح معلقاتهم كأن لم يكن لهم من دون الملققات قصائد وأبيات آخر يحتاج إلى التدقيق والتحقيق ؟

ثانياً : لم يخطر على بالك أن تستعرض رأياً من آراء المستشرقين واستدلالات المتقنين الأثريين مثل « تولدك » و « جويدي » وغيرها من الذين كانوا الأساس الذي اعتمد عليه الدكتور « طه حسين » والنبع الذي أخذ منه في إنكار الشعر الجاهلي أو الإغراق في الشك فيه . وركنت إلى المصادر العربية القديمة دون ترو واحتراس ودون جدال ولا مناقشة . ونحست حياة الشعراء متجنباً كل ما يدعو إلى الشك والارتياب ويعوزه التذليل والبرهان .

وشرحت الملققات ولم تر حاجة أن تسهلها يبحث يقرر أنها جاهلية وأنها ليست في مجموعها أو بعضها من انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب ، أو صنعة النحاة ، أو تكلف القصاص ، أو اختراع المفسرين والمحدثين والتكلمين . وهل يصح لكاتب يريد أن يبعث الشعر الجاهلي بعد أن حامت حوله الشكوك والأوهام أن يففل عن ذلك ؟ وهل يبعث الشعر الجاهلي بسرد حياة الشعراء وشرح معلقاتهم كما يدرسها طلاب المتوسطات

ولا بد أن أروى لك نماذج من بحثه لتستدل على صدق ما أقول ولتؤمن أن البحث العلمي الصحيح يمت ذلك

يقول الدكتور البصير مقرأ وجود عمرو بن كلثوم والحارث ابن حلزة اليشكري : « إن منابع التاريخ العربية في القرون الوسطى تذكرها وتروى لها . إذن فلا سبيل إلى إنكار وجودها ولا إلى الشك في شاعريتهما » (ص ٤٨ - ٤٩) . وبعثه أن القارىء قد أقنعه هذا البرهان ، وأنه لا يمكن أن يقال أكثر من ذلك في إثبات الشاعرين ، فيصدر أمراً عسكرياً « بالشروع بالبحث حالاً » عن شرح معلقتهما

مهلاً يا دكتور ! إن تولدك لا يطمئن إليه أشد الناس سذاجة حتى تنق عن ذهنه ما أحيط به عمرو بن كلثوم من أساطير جعلته أقرب إلى أبطال القصص منه إلى أشخاص التاريخ . وحتى تنقمه بالنص التاريخي أو الأداة المنطقية التي تقرب إلى عقله صحة ما وقع بين آل النذر وبني تغلب من ناحية ، وبين ملوك الفرس وأهل البادية من ناحية أخرى . وحتى تدحض شكوك الرواة في بعض